

استراتيجية التعليم وإرث النهضة الأوروبية

حيرش بغداد محمد

Université d'Oran

1. تحديد المفاهيم

مفهوم الإستراتيجية يتعلق في الأصل بالخطط الحربية التي بفضلها تحدد الأهداف والغايات الكلية، ولكن هذا المفهوم شمل بالتدريج المجالات الأخرى كالسياسة والاقتصاد والتعليم.. ويدل مفهوم الإستراتيجية كذلك على فن توجيه مجمل الإمكانيات والطاقات لتحقيق هدف ما، وهي أيضا فن التنسيق بين القوى العسكرية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية اللازمة لقيادة صراع أو للتحضير للدفاع عن أمة. وإذا كانت الإستراتيجية فنا، فمن الضروري معرفة حقيقة هذا المفهوم، فوفق التعرف الشائع: الفن نشاط إنساني محدد يستدعي بعضا من الملكات الحسية والجمالية والعقلية، كما أنه يرمز إلى مجمل القواعد التي تهم مهنة ما، وهو كذلك طريقة حاذقة وماهرة لصنع شيء ما.

لم تعد إستراتيجية التعليم في الجزائر تتوجه إلى محو الأمية والقضاء على الجهل كما كان الحال منذ أربعين سنة، فهذا الهدف قد تحقق اليوم، ويتوجه المجتمع إلى أهداف جديدة تتلاءم مع روح العصر L'ère du temps ومع روح الشعب (L'esprit du peuple) وهذين المصطلحين هيجليين (F. Hegel) ومن بين هذه الأهداف الانفتاح على قيم العصر من ديمقراطية وتكنولوجيا والرغبة في تحقيق حوار الحضارات وهذا ما يفسر فتح المجال أمام كل التخصصات التكنولوجية منها والإنسانية من أجل استيعاب جميع قيم العصر والتخفيف من وطأة التعليم الديني الذي كان غالبا على المجتمع وخاصة أيام الاستعمار، فالهدف هو تخليص المجتمع من التعصب (الإيديولوجي، العرقي، الديني...) الذي يقوم كعائق أمام حوار الحضارات. تعدد التخصصات يخلق توازنا في بنية الكائن الاجتماعي، فيحقق كل أبعاده (الإنسان كائن متعدد الأبعاد) من غير احتقار أحدها أو تمجيد الآخر، فيصبح للفرد الجزائري بعد عالمي.

ما زالت إلى اليوم تطرح علاقة التعليم (الجامعة) بالواقع، وألاحظ أن هذا الطرح ليس له ما يبرره اليوم، فالتعليم في تعدديته وشموليته يغطي جميع التخصصات

النظرية والتطبيقية، التقنية والإنسانية ... والأبحاث الجامعية تتناول بالدراسة الجادة الواقع بكل خصوصياته، وتحاول أن تجد الحلول العملية والتطبيقية لمشاكله، ولكن المجتمع لا يساير هذه الحركة ولا يستفيد منها كلية. البحث الجامعي ليس معرفة من أجل المعرفة (معرفة لذاتها) بل هو بحث برغماتي.

2. البعد الفلسفي لإستراتيجية التعليم:

العودة إلى الإرث اليوناني القديم.

في نظري لا تخرج إستراتيجية التعليم اليوم عن الأهداف العامة التي حددتها المرحلة التنويرية والنهضوية التي عرفتها أوروبا والتي تختلف تماما عما كان معروفا في المرحلة الإسلامية أو مرحلة القرون الوسطى التي شهدتها أوروبا أين ساد التلقين والتحفيظ وتقديس المعلم ... ولكن على خلاف ذلك انفتحت المرحلة التنويرية على إعادة الاعتبار للمتعلم وتحفيزه على استعمال حسه النقدي، وقد أجاب إمانويل كانط على السؤال المتعلق بمفهوم التنوير قائلا: >> هو خروج الإنسان من القصور، الذي تسبب هو نفسه فيه. القصور يعني عدم القدرة على استخدام الفهم دون توجيه الآخر، فهو المسؤول عن قصوره، لأن السبب لا يكمن في عيب الفهم، ولكن في قلة القرار والشجاعة لاستخدامه بدون توجيه الآخر. ليكن لديك الشجاعة لاستخدام فهمك الخاص. هذا هو شعار التنوير.<< وقد عبر نيتشه عن العلاقة الجديدة التي أصبحت تحكم المعلم بالمتعلم حين قال عن نفسه: >> لست نبيا ولا أريد أتباعا <<، ويقول كذلك: >> أقطن بيتي الخاص، ولم أقلد أحدا في شيء قط، وأسخر من كل معلم لم يعرف كيف يسخر من نفسه.<<. إذا كان التقليد يخلق في نفس المتعلم الطمأنينة وفي نفس المعلم الرضا، فإنه لا يفيد في تطوير الحياة لأن الإبداع لا يتحقق إلا من خلال التوتر الذي ينشأ بين طرفين. نجد المثال واضحا عن المسألة في المنهج السقراطي حيث كان سقراط يتهكم من الأطراف التي يحاورها ويولد في نفس الوقت منهم المعارف التي تكمن في قرارة أنفسهم، فكان يحتل موقعا وسطا بين امتلاك المعرفة وعدم امتلاكها، مما أدى إلى ظهور فئة معجبة به إعجابا كبيرا وهي فئة الشباب التي أدركت قيمة المنهج السقراطي وفئة الكهول والشيوخ التي لم تفهم حقيقة ذلك وبقت وفية للتقاليد أو بالأحرى للتقليد مما أدى إلى محاكمة وإعدامه.

3. النهضة الأوروبية والمكسب الإنسان (L'humanisme)

يعتبر فرانسيسكو بيترارك (القرن الرابع عشر) مؤسس المذهب الإنساني، ويعود إليه الفضل في الإعراض عن نمط التعليم الجامعي الجامد السائد في القرون الوسطى. إن الإنسان عند أصحاب المذهب الإنساني هو موضوع الفلسفة الأساسي،

وكذلك شروط حياته التاريخية والسياسية والتفتح الحر لقواه الإبداعية، ومن هنا جاءت تسمية المذهب (humanitatis studia) إن مثال الفلسفة الإنسانية هو الإنسان العالمي، الإنسان المتعلم الملم بكل جوانب العلم. الإنسان الذي يحس بالقدرة على توسيع معارفه وحدوده باعتباره جوهرًا قادرًا على ممارسة التعليم، وهذا كله ارتباطًا بمثال الإنسانية القديم. يعي الإنسانويون الأوائل الاختلاف الذي تحويه الحياة، وعلى الحكمة الإنسانية أن تجمع بين الأمور المختلفة وأن لا تتخلى عن أي شيء. هذه الأفكار قريبة جدًا مما هو متداول اليوم حول العولمة وضرورة الانفتاح على الآخر. وإستراتيجية التعليم اليوم تتوجه إلى الإلمام بكل المعارف والعلوم سواء المتعلقة منها بالجانب الإنساني أو الجانب التقني مع زيادة الوعي باستقلالية العقل إزاء كل سلطة أو مرجعية

4. نظرية العنف عند روني جيرارد وموقع المثقف

يريد المثقف أن يجني أسمى القيم (العلم، الوعي، التقدم...) ولكن لا يمكنه أن يحقق هذا إلا إذا عاش في خطر يقول نيتشه (فيلسوف ألماني معاصر) : >> إذا أردت أن تجني أسمى ما في الوجود فعش في خطر.<< يشكل المثقف بطبيعته أقلية ويرمز في نفس الوقت إلى المعرفة والقوة لذلك فهو معرض دومًا للعنف الاجتماعي الذي يجعل منه كبش فداء. إن حرب الكل ضد الكل السائدة في المجتمعات البدائية كادت أن تقضي على النوع البشري مما استدعى التفكير في نمط جديد من العنف يتمشى مع تطور الوعي ويعبر أكثر عن النظام الذي تطمح إليه المجتمعات التي خرجت من الحالة الطبيعية إلى الحالة السياسية. فأصبح العنف يتوجه إلى أفراد محددين من المجتمع يتميزون بصفات القوة والفكر وهم بطبيعتهم أقلية، وفي الحالات التي يجد المجتمع نفسه في خطر أو مأزق أو تحل به كارثة طبيعية... يبحث عن كبش الفداء (émissaire bouc) ليحملة أسباب ما حل بالمجتمع، ومن الأمثلة التي يعطيها روني جيرارد عن ذلك ما حصل لأوديب (Eudipe) في الأسطورة اليونانية... وما حصل للعالم الإيطالي غاليلي الذي حكمت عليه الكنيسة بالهرطقة (الكفر) وألزم بالإقامة في بيته إقامة جبرية لا يغادره ولا يزوره أحد، ومن أجل تفادي الإعدام كان عليه الاعتراف بأن نظريته ليست صحيحة. وقد كان على غاليلي أن يقرأ نصًا مطولًا أمام محكمة التفتيش المكونة من رجال الدين، ويلتزم بأن يقرأ هذا النص كل مرة في اليوم حتى نهاية حياته. وهذا مقتطف من هذا النص المطول:

« Abjuration de Galilée, 22 juin 1633:⁸⁵

Moi, Galilée, fils de Vincent Galilée, de Florence, en mon âge de 70 ans, cité personnellement en jugement et agenouillé devant vous, très Éminents et très Révérends Cardinaux, dans toute la République chrétienne contre la dépravation hérétique, Inquisiteurs généraux, ayant sous les yeux les très Saints Évangiles, que je touche de mes propres mains, je jure que j'ai toujours cru, que je crois à présent et qu'avec l'aide de Dieu je croirai pour l'avenir tout ce que tient, prêche et enseigne la très Sainte Église Catholique et Apostolique. Mais parce que par ce Saint Office, pour avoir, après qu'il m'eût été intimé par une prescription émanant de lui d'abandonner totalement la fausse opinion selon laquelle le soleil serait le centre du monde, et immobile, et la terre n'en serait pas le centre et serait mobile, et de ne tenir, défendre ni enseigner de quelque façon que ce fût, de bouche ni par écrit la dite fausse doctrine, et après qu'il m'eût été notifié que la dite doctrine est contraire aux Saintes Écritures, pour avoir donc écrit et donné à imprimer un livre dans lequel je traite de cette même doctrine préalablement condamnée et apporte en sa faveur des raisons pleines d'efficacité sans avancer aucune solution. Par ce Saint Office j'ai été jugé véhémentement suspect d'hérésie, c'est-à-dire d'avoir tenu et cru que le soleil serait le centre du monde et immobile, et que la terre n'en serait pas le centre et serait mobile.

Moi, Galileo Galilei susdit, j'ai abjuré, juré et promis, et me suis lié d'obligation comme il est dit ci-dessus; et pour en faire foi, de ma propre main j'ai signé la présente cédule de mon abjuration et l'ai dite mot pour mot à Rome, dans le couvent de la Minerve, ce 22 juin 1633.

⁸⁵ *Lo Chiatto (Franco) et Marconi (Sergio), Galilée entre le pouvoir et le savoir, trad. par Simone Matarasso-Gervais, Alinéa, 1988*

Moi, Galileo Galilei, j'ai abjuré comme ci-dessus, de ma propre main. »

أعتقد أن الاكتشافات العلمية المحققة بواسطة غاليلي وغيره من العلماء هي التي ساهمت في إحداث الإصلاح الديني في أوروبا بواسطة مارتن لوثر (Luther) وكالفن (Calvin) وكيف أدى هذا إلى ظهور اللائكية (La laïcité).

وفي مجتمعاتنا العربية نلاحظ أن أستاذ جامعيًا من مصر (نصر حامد أبو زيد) يُتهم من طرف الأزهر بالردة (الكفر) وذلك في بداية التسعينيات بسبب كتاباته الجريئة التي أفلقت الاتجاه الإسلامي المحافظ، وعرضت القضية أمام القضاء الذي لم يتردد في تأكيد التهمة، وتم تطليق الرجل من زوجته، وحرّم أيضًا من درجة الأستاذية رغم أن المجلس العلمي للكلية التي يدرس فيها لم يرى في كتابات أبو زيد أي شيء سيء للإسلام.

إستراتيجية التعليم العالي اليوم مضطرة إلى تحقيق لحظة تنويرية شبيهة بما تحقق في الغرب، وعلى المثقف والباحث الجامعي أن يعيش على أمل تحقيق هذه اللحظة التنويرية في المستقبل، من غير أن يتعجل أو ييأس، مقتديًا بفلاسفة الأنوار.

يقول كانط في الفصل المخصص للجواب عن ما هي الأنوار؟: >> إذا طلب منا الآن: " هل نعيش اليوم في قرن مستنير؟ " يكون الجواب: " لا، ولكن نعيش في عصر متجه نحو الأنوار." <<. يريد الأستاذ أن يكون من الرجال العظماء، وقد حدد فريدريك هيجل لهؤلاء شرطين أساسيين يتعلق أحدهما بالقدرة على الفعل والإرادة بحيث يكون هذين الشرطين متصلين حيث يقول: >> الرجال العظماء هم الذين يفعلون ما يريدون، ويريدون ما يفعلون. <<

« Les grands hommes sont ceux qui font ce qu'ils veulent et veulent ce qu'ils font. »

فهل يمكن أن يتحقق للأستاذ هذين الشرطين؟

المراجع:

1. فردريك نيتشه - العلم المرح.
2. أطلس الفلسفة - مجموعة من الباحثين الألمان - ترجمة جورج كتورة.
3. 1. كانط - فلسفة الأنوار - ترجمة Stéphane Piobitta.